

مضمون الخطاب النثري العربي القديم/ الأستاذة الدكتورة سكيينة قدور

فن التوقيعات وبنيتها وخصائصها الفنية⁽¹⁾

1- التوقيع لغة واصطلاحاً: يطلق التوقيع في اللغة على معانٍ حقيقية وأخرى مجازية، حسية ومعنوية، والتوقيعات مشتقة في اللغة من التوقيع «في الكتاب وهو إلحاق شيء فيه، ومنه أيضاً هو أثر الرجل على ظهر البعير»⁽²⁾ وجاء في مقاييس اللغة « وقع الغيث، سقط متفرقاً، ومنه التوقيع، ما يلحق بالكتاب بعد الفراغ منه»⁽³⁾، أما صاحب الصحاح فالتوقيع عنده « ما يوقع في الكتاب، يقال السرور توقيع جائز»⁽⁴⁾ وجاء في التاج أن التوقيع «مشتق من الوقوع لأنه سبب وقوع الأمر المذكور، أو لأنه إيقاع لذلك المكتوب في الكتاب، فتوقيع كذا بمعنى إيقاعه»⁽⁵⁾ أما "ابن منظور" فقد أورد تعريف "الأزهري" الذي يقول فيه: « توقيع الكتاب، أن يحمل بين تضاعيف سطوره مقاصد الحاجة، ويُحذف الفضول، وهو مأخوذ من توقيع الدبر ظهر البعير، فكأن الموقع في الكتاب يؤثر في الأمر الذي كتب الكتاب فيه ما يؤكد و يوجهه»⁽⁶⁾ فالناظر إلى هذه التعاريف اللغوية التي أوردتها معاجم اللغة يكاد يجتمع الأمر على أن التوقيع ناتج عن أثر سواء كان من أثر الرجل على ظهر الدابة، أو من غيث على وجه الأرض أو غيره.

— أما اصطلاحاً فيرتبط بمعناه اللغوي السالف الذكر، فهي تطلق على ما يوقعه الكاتب في جواب القضايا أو الطلبات المرفوعة إلى الخليفة أو السلطان أو الأمير. يقول "البطليوسي" « وأما التوقيع فأن العادة جرت أن يستعمل في كل كتاب يكتبه الملك، أو من له أمر و نهي في أسفل الكتاب المرفوع إليه، أو على ظهره، أو في عرضه بإيجاب ما يسأل أو منعه، كقول الملك: يُنقَد هذا إن شاء الله، أو هذا صحيح، وكما يكتب الملك على ظهر الكتاب، ليرد على هذا ظلامته أو لينظر في خبر هذا أو نحو ذلك»⁽⁷⁾ فالتعريف يدلّ على أن التوقيع يكون أسفل الكتاب من ناحية ظهره أو عرضه رداً على طلب في الرقعة نفسها، كما يدلّ التعريف على تكفل الملك أو من ناب عنه بذلك، مشيراً إلى بعض خصائص التوقيع كالإيجاز و الاختصار والبلاغة وذلك من خلال المثالين المشار إليهما في التعريف. وعرفه "القلقشندي" بأنه: «الكتابة على الرقاع والقصص بما يعتمده الكاتب من أمر الولايات و المكاتبات في الأمور المتعلقة بالملكة أو التحدث في المظالم»⁽⁸⁾ محمداً بذلك مهام التوقيع في الأمر الخاص بالولاية أو المملكة أو الرد على المظالم، وعرفه "ابن خلدون" بقوله «ومن خطط التوقيع، وهو أن يجلس الكاتب بين يدي السلطان في مجالس حكمه وفصله ويوقع على القصص المرفوعة إليه أحكامها والفصل فيها، ملقاة على السلطان بأوجز لفظ و أبلغه، فإما أن تصدر كذلك، وإما أن يحذو الكاتب على مثالها في سجل يكون بيد صاحب القصة ويحتاج الموقع إلى عارضة من البلاغة يستقيم بها توقيعها»⁽⁹⁾ ويبدو تعريف ابن خلدون جامعاً لما يشتمل لخصائص التوقيع فهو أولاً بيد الملك أو نائبه ويكون فاصلاً في المشكل مضافاً إليه جودة البلاغة.

تطورت دلالة التوقيع في العصر العباسي، واكتسبت معنى أدبياً، فأصبح يطلق على تلك «الأقوال البليغة الموجزة المعبرة التي يكتبها المسؤول في الدولة، أو بأمر كاتبها على ما يرفع إليه من قضايا أو شكايات متضمنة ما ينبغي اتخاذه من إجراء نحو قضية أو مشكلة، وهي بهذا المفهوم أشبه ما تكون بتوجيه المعاملات الرسمية في الوقت الحاضر»⁽¹⁰⁾

وفي العصور الوسطى أُضيفت إلى التوقيعات دلالة جديدة مع بقاء دلالتها الأدبية السائدة في العصر العباسي؛ حيث أصبحت تطلق على الأوامر والمراسيم التي يصدرها السلطان أو الملك للتعين (ولادة، أمراء، وزراء، قضاة...)، امتازت بطولها والإسهاب في ذكر الحثيات والأسباب المتنوعة للتعين، حتى تجاوز بعضها أربع صفحات، وقد أورد القلقشندي نماذج كثيرة في "صبح الأعشى" والتوقيعات بهذا المفهوم لا تعد توقيعات أدبية «لافتقادها عنصر البلاغة والإيجاز ولا تدخل ضمن هذا المفهوم، ثم يتحول معناها بعد ذلك إلى علامة اسم السلطان»⁽¹¹⁾

2- نشأة التوقيعات: نشأت التوقيعات في حضان الكتابة وارتبطت بها، لذلك وقع الإجماع بعدم معرفة عرب الجاهلية للتوقيعات الأدبية بسبب أن الكتابة لم تكن شائعة بينهم، ولم تعرف التوقيعات في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم لأن الكتابة أيضاً لم تكن شائعة، وقد جاء الإسلام كما يذكر "ابن عبد ربه" «وليس يكتب بالعربية غير سبعة عشر إنساناً»⁽¹²⁾

ولعل أقدم ما وصلنا من التوقيعات في تاريخ الأدب، ما كتب "أبو بكر الصديق" - رضي الله عنه - "لخالد بن الوليد" جواباً على خطاب ورده من دومة الجندل يطلب أمره في أمر العدو، "أدُّ من الموت تُهَبُّ لك الحياة"⁽¹³⁾، ثم شاعت التوقيعات بعد هذا لشيوخ الكتابة. وهناك من ينسب التوقيعات إلى ملوك الفرس، منهم "جرجي زيدان"⁽¹⁴⁾ و "شكري فيصل"⁽¹⁵⁾ و "شوقي ضيف" الذي يقول: «التوقيعات جنس نشري له سمات خاصة وهي عبارات موجزة بليغة تعود إلى ملوك الفرس ووزرائهم أن يوقعوا بما على ما يقدم عليهم من تظلمات الأفراد في الرعية و شكواهم، وحاكاهم خلفاء بني العباس ووزرائهم في هذا الصنيع»⁽¹⁶⁾. بينما يؤكد "أحمد محمد الحوفي" منبتها العربي الأصيل، وأن العرب عرفوا التوقيعات ومارسوها في أحسن صورها قبل أن يتصلوا بالفرس ويحاكوهم، فالتوقيعات قائمة على ما يلائم الفطرة العربية من ميل إلى الإيجاز ومقدرة على البيان وسرعة خاطر وحضور بديهة، فليس العرب بحاجة إلى أن يحاكو غيرهم فيما يلائم طباعهم أشد الملاءمة⁽¹⁷⁾، ويضاف إلى هذا كله أن صاحب العقد الفريد أورد طائفة من توقيعات الخلفاء الراشدين وحكام الأمويين.

- توقيعات صدر الإسلام: إن التوقيعات التي أُنزِلت في تاريخ الأدب العربي في صدر الإسلام قليلة لا تتجاوز أصابع اليد وهي لم تشكل بعد فناً قائماً بذاته، لأنها بدايات مطبوعة انطلقت من سجية دون تمحيص، وصدرت عن موهبة فذة وتجربة عميقة وخبرة طويلة وثقافة واسعة، ونعلل قلة التوقيعات زمن الخلافة الراشدة بضيق توقيعات تلك المرحلة أو عدم تدوينها، أو اختلاطها بأقوال الخلفاء رضي الله عنهم، ذلك أن المصادر لم تميز بين هذه الأقوال التي عمادها اللسان وبين التوقيعات التي عمادها الكتابة. انتشار العدل وعموم الأمن والأمان، نصره المظلوم ومعاقبة الظالم، وجود البطانة الصالحة التي البعيدة عن الأهواء والمصالح الشخصية، واتصال الخلفاء بالرعية فلم يكن الناس في حاجة إلى ذلك⁽¹⁸⁾

ومن أبرز التوقيعات في هذه الفترة ما وقعه الخليفة "عمر بن الخطاب" رضي الله عنه في مكاتبة لرجال الدولة من ولاة وقواد، أن "سعد ابن أبي وقاص" كتب إليه من الكوفة يستأذنه في بناء دار الإمارة، فوقع على أسفل كتابه «ابن ما يكنك من المهاجر وأذى المطر»⁽¹⁹⁾. ووقع أيضاً في كتاب "عمرو بن العاص" «كن لرعيتك كما تحب أن يكون لك أميرك»⁽²⁰⁾

ولعثمان بن عفان "توقيعات منها: توقيعه لرجل شكاه عيلة «قد أمرنا بما يقيمك، وليس في مال الله فضل للمسرف»⁽²¹⁾ وكثيرة هي توقيعات الإمام "علي بن أبي طالب" رضي الله عنه، منها جوابه "الحسن والحسين" في شيء من أمر عثمان فوقع «رأي الشيخ خير من مشهد الغلام»⁽²²⁾، ووقع أيضاً في كتاب "سلمان الفارسي" وكان سأله كيف يحاسب الناس يوم القيامة «يحاسبون كما يرزقون»⁽²³⁾، ووقع في كتاب لصعصعة بن صوحان يسأله في شيء «قيمة كل امرئ ما يحسن»⁽²⁴⁾، ونلاحظ أن توقيعات الصحابة تمتاز بالبلاغة والإيجاز.

ب- من توقيعات العصر الأموي: هي امتداد لصدر الإسلام، إلا أنه أصبح فناً أدبياً اعتاد الخلفاء والأمراء و الولاة أن يوقعوا على الرسائل التي ترد إليهم بعد أن عليها ومعرفة مضمونها، نعتها بذورا صالحة لفن سيستقل عن الفنون الأدبية، وقد وصل إلينا من توقيعات خلفاء بني أمية ابتداء من معاوية بن أبي سفيان وانتهاء بمروان بن محمد آخر خلفاء الدولة الأموية توقيعات كثيرة منها :

وقع "معاوية بن أبي سفيان" في كتاب «نحن الزمان من رفعا ارتفع، ومن وضعناه اتضع»⁽²⁵⁾، وكتب إليه "ربيعه بن عسل البربوعي" يسأله أن يعينه في بناء دار بالبصرة باثني عشر ألف جذع فوقع إليه «أدارك في البصرة أم البصرة في دارك»⁽²⁶⁾. ووقع يزيد بن معاوية جواباً لعبد الله بن جعفر بن أبي طالب يستميحه لرجال في خاصته «احكم لهم بآمالهم إلى منتهى آجالهم»⁽²⁷⁾.

وكتب الحجاج بن يوسف الثقفي إلى عبد الملك بن مروان يخبره بسوء طاعة أهل العراق وما يقاسي منهم، ويستأذنه في قتل أشرفهم فوقع له «إن من يمن السائس أن يأتلف به المختلفون ومن شؤمه أن يختلف به المؤلفون» (28)، ووقع عمر بن عبد العزيز لوالي العراق يخبره عن سوء طاعة أهلها «أرض لهم ما ترضى لنفسك وخذهم بجرائمهم بعد ذلك» (29) ووقع أيضا في رقعة محبوس «تب تطلق» (30)، ولهشام بن عبد الملك توقيعات كثيرة منها أنه وقع في قصة قوم شكوا أميرهم «إن صح ما ادعيتم عليه عزلناه وعاقبناه». (31) ومن توقيعات الحجاج ما وقع به في قصة محبوس ذكروا أنه تاب «ما على المحسن من سبيل» (32).

ج - توقيعات العصر العباسي: ازدهرت التوقيعات الأدبية في هذا العصر تبعا لازدهار الكتابة الفنية وتعدد أغراضها وحلولها مقام الخطابة في كثير من شؤون الدولة وقضاياها، وأصبح الكاتب البليغ مطلبا من مطالب الدولة تحرص عليه وتبحث عنه لتسند إليه تحرير المكاتبات وتحرير الرسائل في دواوينها، وأصبح لا يحظى بالوزارة إلا ذوو الأقلام المتمكنة من الكتاب والبلغاء. ففن التوقيعات قد انتشر في هذا العصر بعد أن نمت بذوره في العصور السابقة، إذ قطف العباسيون ثمار هذا الفن ناضجة. - أسباب ازدهار فن التوقيعات (33):

- 1 - انتشار الفتوحات الإسلامية واتساع رقعة الدولة الإسلامية وحاجتها إلى سرعة التواصل.
- 2 - انتشار الكتابة والتعليم بعد أن كانت الكتابة مقصورة على عدد محدود من المسلمين في صدر الإسلام (34).
- 3 - حاجة الولاة إلى الردود السريعة على مكاتبتهم أو رسائلهم لأهميتها وكثرتها وخشية تراكمها وتأخرها، مما يحول دون حل مشكلات الولاة والناس والنظر في مصالحهم.
- 4 - مواقف بعض الحكام أو الولاة من الرعية، مما يدفع بهم إلى الكتابة فورا إلى من هو أعلى منهم لعرض حاجاتهم ومطالبهم.
- 5 - تشدد بعض الولاة، وانتشار الفساد في بعض المناطق وكثرة المظالم والتظلم من الولاة وتفضيل المصالح الشخصية على الأمور الخاصة بشؤون الدولة والرعية.
- 6 - ظهور كثير من الكتاب في بلاط الخلفاء والحكام ومقدرتهم على التألق في حياتهم الأدبية، من هؤلاء جعفر بن يحيى، والفضل بن سهل والصوليون وآل المدبر... وغيرهم كثير، يقول الجهشيارى: «وكان جعفر بليغا كاتباً وكان إذا وقع نسخت توقيعاته، وتدورست بلاغاته» (35).

7 - اهتمام الناس بالتوقيعات، وولعهم بها، وحرصهم على اقتنائها، كان البلغاء يتنافسون في تحصيل توقيعات جعفر بن يحيى الذي كان يلي ديوان التوقيع للرشيد ليقفوا منها على أساليب البلاغة وفنونها، حتى قيل: «إنها كانت تباع كل قصة منها بدينار» (36). ومن أبرز توقيعات العباسيين ما وقعه السفاح في كتاب ورده من جماعة من أهل الأنبار يذكر أن منازلهم أخذت منهم وأدخلت في البناء الذي أمر به الخليفة ولم يعطوا أثامها: «هذا بناء أسس على غير تقوى» (37). ووقع أبو جعفر المنصور في كتاب ورد من أهل الكوفة شكوا فيه عاملهم «كما تكونوا يؤمر عليكم» (38). ووقع المهدي إلى صاحب خراسان في أمر جاءه «أنا ساهر وأنت نائم» (39). ووقع هارون الرشيد في قصة رجل من البرامكة «أنبته الطاعة وحصدته المعصية» (40).

ووقع المأمون إلى عامل شكاه أهل عمله «إن آثرت العدل حصلت على السلامة، فانصف رعيتك من هذه الظلامة» (41). ووقع صاحب بن عباد أنه رفع إليه بعضهم رقعة يذكر أن بعض أعدائه يدخل داره فيسترق السمع فوقع فيها «دارنا هذه خان يدخلها من وقي ومن خان» (42)، ووقع في رقعة استحسناها «أفسحُرْ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تَبْصُرُونَ» (43).

3 - أنواع التوقيعات: بالنظر في كتب التراث التي تحدثت عن التوقيعات لا يجدها تخرج عن خمسة أنواع:

أ - التوقيع آية قرآنية: ويشترط في التوقيع الذي يكون آية قرآنية أن يناسب الموضوع الذي تضمنه الطلب، ومن ذلك أن أبا محمد الحسن بن محمد المهلب قبل تقلده منصب الوزارة كان يعاني من قلة ذات اليد وشدة الفقر، وسافر في بعض الأيام مع رفيق

له أديب من أهل الأسفار ولكنه لقي في سفره مشقة ونصبا ولا زاد معه ولا مال، ونزل مع رفيقه في بعض الأماكن واشتهى اللحم، فلم يجد ثمنه فأئشده ارتجالا ورفيقه يسمع:

ألا موت يباع فأشتريه فهذا العيش ما لا خير فيه
إذا أبصرت قبراً من بعيد وددت لو أنني مما يليه

فتأثر رفيقه بالأبيات ورق له فاشترى بدرهم لحماً، ثم بعد هذا حسنت أحوال المهلب وتقلد الوزارة وضافت الحال برفيقه الذي اشترى له اللحم، فشد الرحال إلى المهلب وكتب له في رقعة:

ألا قل للوزير فدته نفسي مقال مذكر ما قد نسيه
أتذكر إذ تقول لضنك عيش ألا موت يباع فأشتريه

فلما قرأ المهلب الأبيات تذكر صحبة رفيقه، ورد الفضل لأهله، فأمر له بسبع مائة درهم ووقع في رقعة قوله تعالى ﴿مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء﴾ (44) ومن ذلك ما كتب به عامل أرمينية إلى الخليفة العباسي المهدي يشكو إليه سوء طاعة الرعية فوقع المهدي في خطابه قوله تعالى ﴿خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهل﴾ (45)

ب - التوقيع ببيت من الشعر: ومن أمثله، ما وقع به الخليفة سليمان بن عبد الملك بن مروان لقتيبة بن مسلم الباهلي يتهدده بالخلع فوقع في كتابه: زعم الفرزدق أن سيقتل مربعا أبشر بطول سلامة يا مريع (46)

وكذلك ما كتب به أذفونش الطاغية (الملك السادس لقشتالة) ليوسف بن تاشفين في الأندلس يتوعده ويتهدده، فوقع يوسف في كتابه ببيت أبي الطيب المتنبي: ولا كتب إلا المشرفية والقنا ولا رسلا إلا الخميس العرمم (47)

ج - التوقيع مثلاً سائراً: ومن تلك التوقيعات ما وقع به علي بن أبي طالب إلى طلحة بن عبد الله «في بيته يؤتى الحكم» (48) ومن ذلك أيضاً ما وقع به يزيد بن الوليد بن عبد الملك إلى مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية، وقد أخبر يزيد أنه يتلكأ في مبايعته بالخلافة «أراك تقدم رجلاً وتؤخر أخرى فإذا أتاك كتابي فاعتمد على أيهما شئت» (49).

د - التوقيع حكمة: ومن أمثلة هذا ما وقع به السفاح - الخليفة العباسي الأول - في رقعة قوم شكوا احتباس أرزاقهم «من صبر في الشدة شارك في النعمة» (50)، وكتب إبراهيم بن المهدي إلى الخليفة المأمون يعتذر إليه مما بدر منه من خروجه عليه ومطالبته بالخلافة فوقع المأمون «القدرة تذهب الحفيظة، والندم جزء من التوبة وبينهما عفو الله» (51).

هـ - التوقيع الشخصي: من تلك التوقيعات التي تندرج في هذا الباب توقيع يحيى بن خالد البرمكي على رسالة رفعت إليه ركيكة العبارة جميلة الخط «الخط جسم روحه البلاغة ولا خير في جسم لا روح فيه» (52)، وكذلك ما وقع به ابنه جعفر بن يحيى بن خالد البرمكي لبعض عماله «قد كثر شاكوك وقل شاكروك فإما عدلت وإما اعتزلت» (53)

4- موضوعات التوقيعات: لم تقتصر التوقيعات على موضوع دون آخر فقد شملت أغراضاً شتى، ومرد هذا راجع إلى فيض رقايع الشكاوى والتظلمات التي كانت ترفعها الرعية إلى الديوان.

أ - رد المظالم وإقامة العدل: لعننا لا نبالغ إذ قلنا إن إنصاف المتظلمين وإزالة شكاياتهم ظل من أهم الموضوعات التي عبرت عنها التوقيعات العباسية حتى مطلع القرن الرابع هجري (54)، وقد كان الخلفاء أنفسهم يباشرون - أحياناً - النظر في المظالم، فتعرض رقايع الشكاوى بين أيديهم فيوقعون على كل رقعة بما يناسبها، وقد يتولى عنهم ذلك وزراءهم مثل ما وقع به جعفر البرمكي في قصة قوم شكوا سوء جوار بعض قرابته «يرحل عنكم» (55)، فهذا التوقيع دل على إبطال الظلم وتوثيق عرى العدل والأمن في المجتمع وقد يكون التوقيع ناطقاً بالحاجة إلى فسحة من الزمن يستطيع الرئيس فيها معاينة وجه الحقيقة والتوثق من حيثيات الأمر ومن ذلك ما وقع به الحسن بن سهل في قصة متظلم «ينظر فيما رفع فإن الحق منيع وإلا فشفاء السقيم دواء السقم» (56)، وأشد من

هذا التوقيع لهجة وأبعد وقعا ما وقع به طاهر بن الحسين (57) في رقعة منتصح ﴿سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين﴾ (58). وقد يحمل التوقيع إقرارا صريحا بالعجز عن رفع المظلمة وإحقاق الحق كتوقيع طاهر بن الحسين «طلبت الحق في دار الباطل» (59).

ب - مخاطبة الولاة والوزراء والقادة: كثيرا ما كانت التوقيعات تتضمن مخاطبة الوزراء والولاة والعمال وغيرهم من المسؤولين في الدولة بوجوب العدل ورد المظالم وسياسة الناس بالمعروف ومعاملتهم باللين، ودعوة المسؤولين إلى تحمل مسؤولياتهم، من ذلك توقيع المهدي إلى عامله على خراسان وقد كتب إليه يخبره بغلاء الأسعار «خذهم بالعدل في المكيال والميزان» (60)، وكذلك ما وقع به الوزير جعفر البرمكي إلى بعض الولاة «الخارج عمود الملك وما استغزر بمثل العدل وما استنزر بمثل الجور» (61).

ج - العفو عن المذنبين: كثرت التوقيعات المكتوبة في العفو عن المذنبين، ودارت طائفة واسعة من توقيعات هذا الباب حول إطلاق أهل الحبوس، من ذلك توقيع الرشيد في قصة سجين «من لجأ إلى الله نجا» (62)، ومنه توقيع جعفر البرمكي في قصة مسجون «العدل يوبقه، والتوبة تطلقه» (63)، ولاينأى عنه توقيع الحسن بن سهل في قصة امرأة حبس زوجها «الحق يحبسها والإنصاف يطلقه» (64)، وأشد هذه التوقيعات صراحة توقيع طاهر بن الحسين في قصة رجل دخل الحبس «يطلق ويعتق» (65).

د- تلبية النداء والحاجات: ومن الأغراض البارزة للتوقيع، ما كان يكتب في تلبية نداء المتضررين وأصحاب الحاجات المعوزين، فمن التوقيعات التي تناولت الإغاثة توقيع المهدي في قصة أصحاب قحط «يقدر لهم قوت سنة القحط والسنة التي تليها» (66)، ووقع المأمون في رقعة أهل السواد الذين شكوا إتيان الجراد على غلاتهم «نحن أولى بضيافة الجراد من أهل السواد فليحط عنهم نصف الخرج» (67). ومن التوقيعات التي صدرت في سد حوائج المعوزين وقضاء ديونهم، ما وقع المهدي في قصة رجل من الغارمين «خذ من بيت مال المسلمين ما تقضي به دينك وتقر به عينك» (68) ومثل ذلك ما وقع به الفضل بن سهل في أمر رجل شكى غلبة الدين «قد أمرنا لك بثلاثين ألفا وسنشفعها بمتلها ليرغب المستمحنون» (69).

هـ- ما يتعلق بأمر الدين: ومن ذلك متوقيع السفاح في كتاب أبي مسلم الخراساني يستأذنه الخروج للحج «لا أحول بينك وبين زيارة بيت الله الحرام وخليفته وإذنتك معك» (70)، كما وقع المنصور في قصة رجل سأله أن يبني بقرية مسجدا لبعده مصلاه «ذلك أعظم لثوابك» (71)، ووقع المنصور في رقعة رجل طلب بناء مسجد في محلته «إن من أشرار الساعة أن تكثر المساجد فزد في خطاك يزد في أجرك» (72). فتظافر هذه الموضوعات مجتمعة شكل ظاهرة فريدة في الدعوة إلى الأخلاق الحميدة، وتوجيه الأمة إلى الكمال والحياة الأفضل، كما أنها عاجلت القضايا بكل وعي وحزم وقوة بعيدا عن المصالح الشخصية والأهواء الذاتية.

5 - شروط كتاب التوقيعات: يقول القلقشندي: «التوقيع أمر جليل ومنصب حفيظ إذ هو سبيل الإطلاق والمنع والوصل والقطع، والولاية والعزل إلى غير ذلك من الأمور المهمات والمتعلقات السنية» (73)، ومن خلال هذا الكلام المنصب على مهنة التوقيع كان لازما على من يتولاه بادئ الأمر أعلى سلطة في الدولة (الخليفة) وإذا غاب الخليفة ناب الأمر إلى كاتبه وبهذا المعنى فكاتب الخليفة هو السلطان الأمر بالمنع والوصل والقطع والعزل.

فتوقيعات صدر الإسلام كانت مقصورة على الخلفاء الذين لم تكن تشتترط فيهم شروط الكتاب، فقد صدرت عن هؤلاء الخلفاء رضوان الله عليهم عن وعي عقلي وفطنة حادة وتجربة عميقة وثقافة واسعة، ولما كان من حق الخلفاء الذين تولوا الخلافة عن طريق المبايعات التوقيع، فإنهم حرصوا على إعطاء التوقيع للوزراء والولاة لاتساع الرقعة الإسلامية وكثرة الأعمال الملقاة على أنفسهم وعلى عاتق من ولاهم، وكان لا بد أن تتوفر فيهم شروط نذكر أهمها (74):

- 1- أن يكون عالما حكيما عارفا بأحوال الناس، عميق التجربة، طويل الخبرة، قوي الدربة.
- 2- أن يكون من أرفع الطبقات، أهل مروءة وحشمة، صاحب عمل وبلاغة، عالي الأخلاق، متحل بالفضائل وفي هذا يقول ابن خلدون: «واعلم أن صاحب التوقيع لا بد أن يتخير من أرفع طبقات الناس وأهل المروءة والحشمة منهم وزيادة العلم وعارضة

البلاغة، فإنه معرض للنظر في أصول العلم، لما يعرض في مجالس الملوك ومقاصد أحكامهم من أمثال ذلك، مع ما تدعوا إليه عشرة الملوك من القيام على الآداب والتخلق بالفضائل ومع ما يضطر إليه في الترسل وتطبيق مقاصد الكلام من البلاغة وأسرارها» (75).

3- أن يكون دقيق الذهن، حسن البيان، رقيق حواشي اللسان، حلو الإشارة، مليح الاستعارة، لطيف المسلك، حاد الذكاء فطنا.

4- الإسلام، ليؤمن فيما يكتبه وعمله ويوثق فيما يذره ويأتيه، فلا يجوز أن يولى أحد من أهل الكفر

5- الحرية، شرط في كاتب السلطان أن يكون حرا لما في العبد من نقص فلا يعتمد في كل القضايا، ولا يوثق به في كل الأحوال.

6- التكليف، لا يعول على الصبي في الكتابة إذ لا يوثق به ولا اعتماد عليه.

7- قوة العزم وعلو الهمة وشرف النفس، فإنه يكاتب الملوك والناس عن ملكه فكل كاتب يجذبه طبعه وجلالته.

8- العلم بمواد الأحكام الشرعية والفنون الأدبية وغيرها، إذ الجاهل لا تميز له بين الحق والباطل، ولا معرفة ترشده إلى الطرق المعتمدة في الكتابة، ومن سلك طريقا بغير دليل ضل أو تمسك بغير أصل زل.

- الخصائص الفنية للتوقيعات: ليس كل توقيع يصلح أن يكون توقيعاً أدبياً، وإنما يشترط في التوقيع خصائص منها:

أ- الإيجاز؛ وهو أن يكون قليل اللفظ غزير المعنى.

ب- البلاغة؛ وهو أن يكون التوقيع مناسباً للحالة أو القضية التي قيل فيها.

ج- الإقناع، وذلك أن يتضمن التوقيع من وضوح الحجج وسلامتها ما يحمل الخصم على التسليم ومن قوة المنطق وبراعته ما يقطع على صاحب الطلب عودة المراجعة.

د- يصدر التوقيع عن رئيس إلى رؤوس فلا مجال للتملق والمداهنة، أو المرء والكذب، أو المخادعة والمراوغة، أو التخاذل.

هـ- اعتمدت التوقيعات على الاقتباس من القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة والتضمين للشعر والنثر وما جرى مجراها، فوقعت في أحسن موقع وقامت في أجمل مقام، ونظمت في أجمل نظام (76).

و- صدرت التوقيعات عن فطرة سليمة وموهبة فذة وبديهة حادة وارتجال في التعبير عن الحال، وثقافة واسعة وتجربة وخبرة عميقة.

ز- جاءت في صياغتها كاملة وفي تراكيبها تامة، لا حشو فيها ولا زيادة ولا تطويل ولا إطباب.

ح- تمتاز بأسلوب موجز محكم مكثف، فالعبارات متينة في مبناها محكمة في صياغتها، جزلة في صناعتها، فخمة في نسجها.

ط- لم تكن التوقيعات تعنى بالتشبيهات أو الصور، إلا ما جاء عفو الخاطر لأن جل اهتمامها كان ينصب على إصابة المعنى.

ي- شاع في التوقيعات بعض المحسنات البديعية مثل السجع والجناس والطباق والمقابلة ومن ذلك ما وقع عبد الملك بن مروان في كتاب منتصح «إن كنت صادقا أثبتناك وإن كنت كاذبا عاقبناك وإن شئت أقلناك» (77). وهناك من الموقعين من نمقوا عباراتهم وزينوا ألفاظهم، ونخص بالذكر كتاب العصر العباسي من أمثال جعفر بن يحيى البرمكي.

6- مصادر التوقيعات: إن الناظر إلى مادة التوقيع في مظان الأدب لا يكاد يعثر عليها في كتب معينة مخصصة، بل هي متناثرة

هنا وهناك في مصادر مختلفة تنازعها كتب اللغة والأدب والتاريخ والتراث عامة. ثم إن هذه المصادر اختلفت وتوعدت في مادتها

بين منظر وبين مجمع ومتنقص لفن التوقيع، وأهم هذه المدونات:

-العقد الفريد لابن عبد ربه (ت 327 هـ) -الوزراء والكتاب للجھشباري (78) (ت 331 هـ).

-من نثر الدرر للآبي (79) (ت 421 هـ) -مؤلفات الثعالبي: (خاص الخاص، تحفة الوزراء، يتيمة الدهر) (ت 429 هـ)